

كتاب واسع المجال ، يطرح فيه الدكتور طيب تيزيني مشكلات عديدة ، وبخاصة مشكلات العالم العربي ، سياسياً واقتصادياً ، مؤكداً أن الحلول مقصورة على الأخذ بالاشتراكية العلمية .

ولا يعنينا هنا إلا ما ورد عن التراث ، أو ما هو بسيله ، وهو لا يكاد يمثل إلا جزءاً صغيراً من كتاب يتجاوز الأربعمئة صفحة من القطع الكبير^(١) . . . وإن كان الكتاب - في جملته - يدور حول هذا الجزء ، فهو يرى : (أن عملية تسييس وتنشيف الجماهير وتكوين ثقافتها بنفسها كقوة تاريخية محركة ، تعتبر أمراً في منتهى الأهمية والضرورة ، فهذه الجماهير المحرومة ، في حالات كثيرة ، من الحد الأدنى الضروري للمعاش المادى ، والمخاضة لتقلبات أمزجة الموظفين البيروقراطيين الكبار والصغار ، المتواطئين - بحدود مختلفة - مع السادة الإقطاعيين وأرباب العمل الرأسماليين . . . يمكن أن تتحول فعلاً إلى قوة اجتماعية هائلة ، إذا انصهرت في بوتقة أيديولوجية وتنظيمية وسياسية واحدة متجانسة ، تتجه باتجاه الإطاحة بالسلطة السياسية والاقتصادية والأيدولوجية لأولئك الإقطاعيين والبورجوازيين الذين لا يحسون في الحقيقة بغلبتهم وقوتهم إلا لأن تلك الجماهير بمنظارتها السياسية تعيش تمرقاً سياسياً وأيدولوجياً وتنظيماً شاملاً وعميقاً) ص ٣٨ .

ومع ذلك ، وفي غياب وحدة التنظيم السياسى والأيدولوجى ، يمكن عمل

(١) ط ٣ - دار دمشق سنة ١٩٧٨ م

ما يريد السخاطون . . يمكن تسيير التظاهرات ، وشلّ نشاط المؤسسات ، وإحداث التخريب والاعتقال ، والانقضااض على مراكز الأمن والإعلام ، ثم الوصول إلى دَسْت الحكم ، وإصدار تشريعات جديدة ، والظهور بأقنعة غير الأقنعة . . وتظل القاعدة الشعبية تعالٰى تحت وطأة طبقة النصف فى المائة ، تحت أى اسم من الأسماء ، فالذين (يصهرون) الجماهير ليغيروا سرعان ما يمثلون طبقة مستغلة ، ويصبح كل شىء (للحزب) ، موجهاً من الكرملين ، أو من قصر السلطان ، أو القيصر ، أو الإمبراطور .

هذه هى طبيعة السلطة غير الملتزمة بتعاليم روحية ، وبآداب أخلاقية ، فانتصار القوة لا يحول دون إرادة الطغيان ، والذين يبدءون من الصفر يستهيم جمع الأصفار ، ممثلة فى الآلاف والملايين ، لأن الإحساس بالحرمان لا يتحول إلى قناعة ورضًا ، مهما أوقى المحروم . . فالنفس الراغبة لا يكفها إلا الاطمئنان إلى أن المال (عارية مستردة) وأن المال لا يحقق إلا المطالب الدنيا ، وهى مطالب الجسد ، ومطالب الجسد لا تقف عند حد ، فإذا تسلطت هذه المطالب على الفكر ، وأصبحت (أيدىولوجيا) ، تحولت إلى نهم ، إلى مزيد من الكسب ، ومزيد من إحساس بالحرمان ، وإن تضاعفت الملايين . . وتحت تأثير هذه (الحمى) ترتكب أشنع الجرائم ، قتلًا ، ونهبًا ، وانتهاءً للأعراض ، ومتاجرة بكل القيم ، فى صورة (رأسمالية) ، أو فى صورة (اشتراكية) .

وفى كلا المجتمعين ، تضعيف الكلمة الحرة ، تموت ، أو تنحى ، أو تنحصر ، أو تترىف ، لأن وسائل الإعلام فى يد السلطة الرأسمالية ، أو السلطة الاشتراكية ، تنطق بما تريد هذه أو تلك . وتحرك الجماهير بحركتها ، وتدفعها إلى التسبيح بحمد جلاديا ، فإذا نشأت جيوب هنا أو هناك ، ونجحت تحت ستار الظلام ، حتى كان التغيير ، لا نجد إلا شكلاً جديداً ، ووجهًا جديدًا ، وتظل (الغابة) يأكل قويا ضعيفها ، ويمكر بعضها ببعض .

إن من الضروري أن تتحرر الكلمة ، حتى لا يصبح إلا الصحيح ، وحتى
تتكشف الحقائق أمام الجماهير ، فتعرف إلى واقعها ، وتشارك في تغيير هذا الواقع
من خلال الاختيار الحر ، والإرادة الحرة .

لكن (حرية) الكلمة أصبحت مفهوماً لزجاً مقززاً ، لأنها تحولت ، كما تحول
(البغاء) ، إلى معايير مصطنعة بأقلام القادرين على الكسب غير المشروع ،
أوبأقلام البيروقراطيين ، من المتسلفين ، أو المتخاذلين .

وأصبح مفهوم (الطبقة) لزجاً مقززاً كذلك ، لأن هذا العامل الذي بدأ
حملاً كادحاً ، ثم صار يتاجر في المخدرات ، أوفى تهريب العملات ، أوفى
أعراض الموظفين والموظفات ، حتى امتلك الملايين ، وتحكم في إعاشة آلاف
العاملين ، وصارت له أبواق تردد شعارات الثورة والاشتراكية ، هل نعهده في طبقة
العمال ، أوفى طبقة الرأسماليين ، أوالبورجوازيين ؟ .

وهذا المليونير ، أمثال هنرى كوريل ، الذى احتضن الحزب الشيوعى المصرى
في الأربعينات ، أو هذا النبيل ، أمثال عباس حلمي ، الذى احتضن حزب
العمال ، هل نعهده هذا أوداك في طبقة الرأسماليين أو الاشتراكيين ؟ .

العبرة لا ترتهن بالأسماء ، لأن الأسماء لا ترتهن بالأعمال ، ولأن الأعمال
لا ترتهن بالأخلاق . . والأخلاق النبيلة ثمرة روحانية ، وليست ثمرة مادية ، لأنها
تعتمد على العطاء ، لا على الأخذ ، على البذل والتضحية من أجل الآخرين ،
لا على النهب واستلاب الآخرين ، على الصبر والتسامح والمحبة ، لا على التمرد
والنقمة والسفاح . .

لستنا في حاجة إلى مزيد من التشريعات ، فما أطول ساحة القوانين ، وما أكثر
موادها ، وما أشق التردد على قاعات المحاكم ، داخل قسم الشرطة ، فالنيابة
العامة ، فالقضاء الابتدائي ، فالاستئناف ، فالنقض ، والنيابة الإدارية ، وعكمكة

القيم ، والمدعى الاشتراكي ، مجاهر ذهب فيها حمار أم عمرو ، (فلا رجعت ولا رجع الحمار) .

نحن في حاجة إلى الالتزام بالصدق فقط ، صدق الكلمة وصدق العمل ، ولا يحكم الصدق إلا الضمير ، ذلك المعقب من بين يدي المرء ومن خلفه ، ولا سبيل إلى الضمير إلا بترية روحية ، قوامها الحق والخير والجمال ، الحق فلا تجاوز ، والخير فلا أنانية ، والجمال يوفر الحب والتقاء والسلام .

ولا يتحقق هذا بالشعار الذي أعلنه برتولد بريخت : ص ٢١

إن شرخاً يقسم العالم

وهو سيق قائماً بيننا

لأن المطر يسقط من فوق إلى أسفل .

لأنه شعار يعتمد على الاستهواء ، مع ظهور بطلانه . .

إن سقوط المطر من فوق أمر طبيعي ، وهو لا يؤدي إلى خلخلة اقتصادية ، إذا أحسن الانتفاع به ، عن طريق إقامة السدود ، وعن طريق الآبار ، ومع التقدم العلمي بإمكان تسيير السحب وإسقاطها .

وإذا كان المطر هو الخير الإقطاعي الرأسمالي ، ومن ثم يحدث (شرخاً يقسم العالم) ، فهو تصور خاطئ ، لأن المطر عطاء بلا من ولا أذى ، وهو عطاء عام ، لا ينحصر طبقة دون طبقة ، ثم إنه قليل الضرر ، كثير الفائدة ، وكثيراً ما يأتي وقد أجديت الأرض فيكون مضاعف الفائدة .

لكنه المنطق الثوري الذي يؤلف عبارات مشبوهة ، ويروج لها ، ويعملها ما يشاء من مضامين . . وهو منطق الشاعر والمؤلف معاً ، إذ يصدران من مطلق واحد . ويريان كما يحيل لي ، ووفقاً لهذا الاتجاه الإلحادي - أن المطر الذي يسقط من فوق إلى أسفل يمثل (الغيبة السلفية) السيطرة ، التي تشد القلوب والعقول والعيون في انتظار ما تجود به ، ومن ثم فهي تدفع إلى الاتكالية والسلبية

والرّضا بما قسم ، وكل هذا في نظر (العلانين) عوامل تخلف ، تحول دون الحلول الجذرية للمشكلات التي تراكمت وتفاذمت ، وزكمت الأنوف ، وأرغمت العيون ، وأغلقت منافذ الضوء .

ولاشك في أن جمود المؤسسات الدينية الحالية ، فكراً وعملاً ، ساعد الحاقدين والساخطين على رفع هذه الشعارات ، في وجه كل دعوة وداعية إلى الخير وهي شعارات تقوم على إشاعة الفساد ، وتخريب الذمم ، وهدم الجسور ، وطمس الحقائق .

ومن وسائلهم إلى ذلك عامل التزييف ، والمناداة بشعارات الآخرين . . فإذا كان (السلفيون) - وهم القاعدة الجماهيرية العريضة - ينادون بالعودة إلى التراث ، والحرص على إنجازاته ، سيلاً إلى البناء والتقدم ، على منهج (بداية التجديد قتل القديم بحثاً) - فإن دعاة المادية التاريخية ، والفكر الاشتراكي العلمي يرون :

التراث :

(من الضروري أن تؤكد على أن مثقفها - الدول النامية - لا يمكنهم أن يسهموا في الإجابة النظرية العلمية عن مشكلات بلدانهم الراهنة والمتوقعة ، إسهاماً جدياً خلائقاً ، بمعزل عن تناوهم لتراثهم الفكري والحضارى العام ، واكتشاف حلقات الوحدة والتجانس بين الجوانب الإيجابية التقدمية من هذا التراث من جهة ، وبين الفكر الاشتراكي العلمي من جهة أخرى ، هذا الفكر الذى يحاولون على أساسه صياغة الحلول الفعلية الثورية لمشكلات بلدانهم ، صياغة تعتمد التحليل الموضوعى الدقيق الشامل والمخانب لكل أشكال التبلد الأيديولوجى والنقل الجمودى الخرف) ص ٤٣ .

وهي دعوة ظاهرها الأخذ بالمنجزات التي حققها الدعوة الإسلامية ، على كافة

المستويات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية ، وباطنها إبراز السليات ونقاط الضعف ، خلال المسيرة الإسلامية ، وبخاصة في ميدان السياسة والاقتصاد . ولهذا نجد التركيز على الإسراف والبدخ في دولتي الأمويين والعباسيين ، وعلى الخلافات السياسية في خلافتي عثمان وعلي ، وعلى حركات الخوارج والشيعية والصعاليك ، وتقديم الرسائل إلى (جامعة لومومبا) في البابكية والحرمة وحركة الزنج والقرامطة ، وتكييف هذا كله من وجهة نظر ماركسية . ويتناولون على الكتاب والسنة آخذين (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ، سالكين مسلك التأويل والمعنى (الباطن) ، ومحملين أفكار المعتزلة والصوفية ما ليس للمعتزلة والصوفية في حساب ، ومن المعروف أن لكل من المعتزلة والصوفية شطحات ، فكان للماركسيين من وراء هذه الشطحات شطحات ، حتى ينفذوا إلى قلوب العامة وأنصاف المثقفين بالزيف ، وإلى عقولهم بالضلال ، وحين يتشر الفساد يسهل القياد .

إنهم لا يدرسون التراث إلا من واقع النيل منه ، والشهيرة به ، لأنهم يرفضون كل ما عدا الخط الماركسي الذي يدينون له ، ويدينون به .

يرفضون (أن يبحث سكان ومفكرو بلدان تلك المجتمعات - النامية - عن نظرة جديدة لا هي اشتراكية ولا هي رأسمالية ، وعن طريق في التقدم ، لا هو اشتراكي ولا هو رأسمالي) ص ٤٣ لأن هذا (يعني ، أولاً وقبل كل شيء ، إبعاد شعوب هذه المجتمعات عن الطريق الصحيح الممكن ، الطريق الاشتراكي ، خلال مشكلاتهم الاجتماعية القومية) ص ٤٤ .

مع أن الاشتراكية العلمية لا تؤمن بالقوميات ، لأنها تدعو إلى الأمية أو الدولة العالمية ، وقد قضت أو حاولت القضاء على القوميات ، في إطار الاتحاد السوفيتي ، لكنها دعوة مرحلية في الأرض العربية ، سرعان ما تأخذ طريقها إلى المسخ والقضاء على دعاة القومية ، كما هو حادث في اليمن الجنوبي .

وهم يرون (أنه لا توجد اشتراكية غنية أو تنزانية أو عربية ، بل هناك طرق غنية وتنزانية ، وعربية ، إلى الاشتراكية ، وأن هذه الطرق ليست سوى تشعبات تنطلق من الاشتراكية العلمية) ص ٤٤ .

ومع أن هناك صراعات حادة - على مستوى الحزب - بين الماوية واللينينية ، وعلى مستوى الوطن ، بين روسيا ويوغسلافيا ورومانيا وإيطاليا ، وبين الصين وفيتنام وكمبوشيا ، بل وداخل الوطن الواحد ، كما هو الحال في الصين وكمبوديا وأفغانستان واليمن الجنوبي .

وذلك لأن الاشتراكية ليست إلا دعوى سياسية اتخذت من المذهب الاقتصادي وسيلة إلى السلطة فلما دان الأمر للينين أكلوا التروتسكيين ، وجاء ستالين فقضى على عشرة ملايين من مائة وعشرين ، وجاء خروشوف فحارب الستالينية ، وجاء بريجنيف فحارب الخروشوفية ، وهكذا (كلما جاءت أمة لعنت أختها) ، لأن الهدف هو تسليط الأضواء على عصابة النصف في المائة ، تحت أى شعار من الشعارات .

فإذا قيل : (إن إقامة تحالف طبقى عالمي مع بلدان النظام الاشتراكي أصبح له في واقع تلك البلدان أكثر من مبرر) ص ٤٥ أدركنا أهمية البلاد النامية المتخلفة للبلدان الاشتراكية المتقدمة لأن روسيا - حسب الإحصاءات العالمية - أكبر مورد للسلاح ، فهي تحمل مشكلات الدول التي تدور في فلكها ، أو التي تمعدها إليها عن طريق السلاح في مقابل ما تملكه الدول الفقيرة من منتجات أولية . وهي - في الدرجة الأولى - زراعية ، بمعنى أنها تستولى على اللقمة من أفواه الجوع ، وتعطيهم أسلحة غير متطورة ، لتحارب هذه الدول بعضها بعضا ، حتى تزداد حاجتها إلى السلاح ، أوليقتل أبناء الدولة الواحدة بعضهم بعضا ، كما هو حادث بين اليمن الشمالي والجنوبي ، وبين إثيوبيا وأرتريا والصومال ، وكما هو حادث في أفغانستان وكمبوديا ، وأوغنده وأنجولا والصحراء المغربية .

ولا غرو أنه ما من بلد في أوربا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أخذ بالحل الاشتراكي إلا وعانى معاناة اقتصادية ، لا سبيل إلى تجاوزها في الواقع القريب . ومع هذا فإن العمل الماركسي لا يفتأ بهم بأن (عقد أوثق الصلات بين تلك المجتمعات وبلدان المنظومة الاشتراكية شرط مكمل لعملية التحرر القومي والتقدم الاجتماعي فيها) ص ٤٦ .

(وبالطبع ، فإن التبادل العلمي الحضاري بينا وبين البلدان الاشتراكية والصديقة سوف يَحْتَرِلُ الكثير من الجهود أمام إنساننا العربي الجديد في عملية استيعاب لقضايا التقدم ، نظرياً وعملياً) ص ٧٩ .

مع أن الواقع المرير يقول بأن الذين يدرسون في (جامعة لومومبا) وغيرها من الجامعات الاشتراكية لا يتلقون المعرفة ، على وفق المناهج الأوربية ، ولكن على أساس ما هو مرسوم لهذه البلاد النامية ، وفي إطار أن تظل تدور ولا تكف عن الدوران في هذا الفلك (الاستعماري) الجديد .

لقد التقيت في جامعتي بغداد وعدن بكثير من المتخرجين في المعاهد الاشتراكية ، وسمعت منهم ومن زملائهم عنهم مما يذكر المثل العربي (تسمع بالمعدي خير من أن تراه) .

ولاشك أن في بعض الجامعات الأوربية والأمريكية تزييفاً لشهادات أبناء البلاد النامية ، لكننا لسنا في معرض الاختيار بين الوجه الأحمر والوجه الأزرق ، لأننا نريد أن نصدق مع أنفسنا ، فلا نلبس أقنعة الآخرين ونضع في مواكب الكرنفالات ، بعقول خاوية ، ويطون ضاوية .

إننا في حاجة إلى الأخذ بمنهج البحث العلمي : ملاحظة واستقراء وتركيبا وفرضاً وتحققاً ، واقتراح حلول ، و (أن يكون الباحث قادراً على اقتحام حقول بحث جديدة ، والتوغل فيها ، دون أن يتقيد ببعض النصوص المنهجية تقيداً حرفياً ، يسبح عليها طابع القداسة والأسطورية) ص ١٠٩ .

أجل ، دون قدامة وأسطورية ، فالدين لا يلقي أدنى ظلال على مناهج البحث ، وترك الحرية الكاملة للدارسين ، كما سبق أن تناولنا ذلك مفصلاً ^(١) وإذا كان من أنبياء الله صانع السفينة ، وصانع الدروع السابغات ، ومسير الرياح ، ومبرئ الأكمه والأبرص ، وعبي الموق ، بإذن الله ، وإذا كان الله يأمرنا ، والأمر يحمل طابع الإلزام : انظروا في أنفسكم ، انظروا في ملكوت السموات والأرض ، وسخر لنا الأرض والجبال والشمس والقمر والنجوم والرياح ، فنبدع - فيما سخر - ما شاء لنا وأمكن ، ولا يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون ، ومن ثم كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، من المهد إلى اللحد ، دون حدود ، ولو كان في أقصى الأرض ، ودون قيود على من جاء به ، ولو كان كافراً . بهذه الحرية المطلقة ، فتح الدين أمامنا كل الآفاق ، لتأكل من طيبات الرزق ، ونأخذ زيتنا عند كل مسجد ، ونعمل للدنيا كأننا نعيش أبداً ، ونعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة .

ومن ثم تنهاوى الدعاوى الباطلة التي تقول : إن (المادية تنظر إلى العالم كما هو ، دون أية إضافة غريبة ، وهذا يكون طبعاً خطوة أساسية وضرورية على طريق معرفة هذا العالم ، والمثالية تحاول إعطاءنا صورة ما عن العالم المادى ، ولكن صورة مشوهة ، فهي لا تنتظر إليه كما هو ، وإنما انطلاقاً من «إضافة غريبة» عنه) ص ١٢٣ / ١٢٤ .

فإذا كانت (الإضافة الغريبة) أن الكون من خلق الله ، وأن كل شيء مقدر في علم الله وإرادته ، فإن هذه (الإضافة الغريبة) لا تشوه صورة الكون ، ولا تحول دون العالم (المشكر) وعلمه ، كما لا تحول دون العالم (المؤمن) وعلمه ، بل إنها تقدم للعالم (المؤمن) القدرة النفسية على الإخلاص لعمله الذى هو هبة من

(١) انظر ص ٧٢ وما بعدها .

الله ، والذي هو سبيل إلى معرفة الله ، والتاريخ يؤكد أن نسبة العلماء الملحدّين إلى العلماء المؤمنين لا يكاد يتجاوز النصف في المائة . نفس نسبة الذين يعيشون الفساد في الأرض ، إلى جانب الخيرين الحريصين على سلامة المجتمع ، وإن كان أثر النصف في المائة أوضح ، لأنه أكثر إلحاحاً ، وأكثر ترويحاً ، وقبح الشر والخوف منه يزيد من انتشاره ، أو من انتشار الحديث عنه . . . ولو أننا لجأنا إلى الوسائل البدائية لحصر المفسدين في الأرض لما تجاوزوا الواحد في الألف ، مع تنوع مظاهر الفساد ، ومع ذلك نقول : (ظهر الفساد في البر والبحر) بسبب أثره البالغ على المجتمع ، ويسبب الخوف على الأموال والأنفس والثمرات .

ومن أثر الفساد وخطورته ظاهرة التعميم التي تصاحبه ، كأن نقول : (بأن المادية تشكل فلسفة الطبقات الاجتماعية التقدمية في التاريخ ، بينما المثالية لعبت دور فلسفة الطبقات الرجعية في التاريخ . . . وأن فلسفة ما ، حيناً تتحول إلى سلاح فكري في أيدي طبقة اجتماعية مناهة ، تفقد قيمتها المعرفية . . . وأن المثالية تمارس وظيفة أيديولوجية تقتضيها الرؤية الفكرية الأيديولوجية العامة للطبقات الطامحة إلى كبح التقدم الإنساني) ص ١٢٤ / ١٢٥ .

على حين نجد (المثالية) - في صورتها السامية - ممثلة في الديانات السماوية التي عملت وتعمل من أجل رفع المعاناة عن المظلومين والمستذلين ، والتاريخ يشهد بأن أكثر التابعين الأولين لأصحاب الرسالات كانوا من المقهورين المستعبدين في الأرض ، وهم الذين ضحّوا وبضحون في سبيل إقامة الدعوة السماوية واستمرارها .

ولو أن الديانة السماوية ظلت (سلاحاً فكرياً في أيدي طبقة اجتماعية) ما كان للطبقة أن تنهار ، وما كان للديانة أن (تفقد قيمتها المعرفية) .

وإذا كان (التاريخ المادي) يحدث بالمنجزات الحضارية الباهرة التي نهضت بها أمة عربية طال حصارها في الصحراء ولم تنفتح أمامها الآفاق إلا بالدين ،

فحققت أبلغ تقدم علمي وصناعي وزراعي ، شقت الطرق والقنوات ، وأقامت السدود ، وشيدت المدن ، وبنت المدارس ودور الكتب والبيمارستانات ، ورفعت القصور ودور العبادة ، وأنشأت البساتين ، وأزهت الآداب والفنون ، وأقامت الترسانات المسلحة برًا وبحرًا ، وسيرت جيوش الأمن والأمان ، باسم ربها ، إلى أقصى مدى ، بين بحر الصين وبحر الظلمات - فأى (كبح للتقدم الإنسانى) كما يزعم هذا الواهم بكذبه ، حتى يجد من يصدقه ؟ .

يقول (لقد عبر ماركس عن فلسفته هذه بأنها « رأس » الطبقة الكادحة ، كما أن الطبقة الكادحة قلب الفلسفة ، وتحقيق الفلسفة يعنى انتصار هذه الطبقة .. فهي لم تتوقع في برج عاجي ، بل طرحت نفسها على أنها أداة فعالة في عملية تحويل المجتمع الإنسانى تحويلًا علميًا ثوريًا) ص ١٣٤ .

ولو أننا صدقنا هذا القول ، الذى يكذبه التاريخ المادى ، كما سجله بسترناك في (دكتور جيفاجو) وألكس تولستوى في (درب الآلام) - لكان لنا أن نقول : إن هذا الوصف ينطبق على كل الديانات كما ينطبق على الغاية والسان سيمونية والناصرية ومبادئ حزب البعث إلى آخر هذه المحاولات الدنيوية لعلاج المشكلات الإنسانية ولكن العبرة ليست بالمناهج التى ترسم بل بالمدى الذى تصل إليه في تحقيقها .

ولو أننا أخذنا بشهادة بسترناك وتولستوى وهى شهادة وثائقية ، من معاصرين مؤيدين للثورة الاشتراكية ، مراقبين من قبل عيون ستالين .. لحق لنا أن ننكر على الاشتراكية أن تكون ذات صلة برأس الطبقة الكادحة أو بقلبها ، فقد مدت الثورة يدها إلى كل العصابات والخارجين على القانون ، واستخدمت كل وسائل الغدر والحيانة والتخريب والإبادة ، من أجل أن تنتصر ، وحين انتصرت اختلف مؤيدوها وتصارعوا ، وراح ضحية الصراع ملايين الأبرياء ، بالإضافة إلى عشرين مليونًا ضححت بهم الثورة على مذبحها ، إبان الحرب الأهلية ، ولا تزال الثورة - بعد

خمس وستين عاماً من انتصارها . تحكم البلاد حكماً إرهابياً ، ولا تزال غير قادرة على توفير لقمة الخبز ، من خلال الطواير ، إلا عن طريق بيع أسلحة الدمار لشعوب العالم الثالث من أجل الاستيلاء على مقدرات حياتها ، فأى رأس وأى قلب ينهض بكل هذه المخازى ؟ .

إن برنجيف لم يصل إلى الحكم إلا من خلال الإستيلاء على ثروات أذربيجان (الأرض البكر) . كما يقول ، ومن خلال سلب هذا المجتمع الإسلامى كل مقومات حياته الروحية والمادية . فهل هذا هو فعل (النجاة) العصائية ، أو فعل (الطبقة الكادحة) ؟ هل هذا ثمرة النزول من (البرج العاجى) أو ثمرة العيش فى (الكهوف) والأوكار ؟ .

ومع ذلك يزعم الأستاذ الجامعى أن (الفلسفة المادية الجدلية) كانت (كنتيجة لثراث الإنسانية التقدمى كله . وكنتيجة تمثلها لهذا التراث بشكل عميق) ص ١٣٦ .

إنه يزعم أن (الفلسفة المثالية الموضوعية مثلها مثل التصورات الغيبية الأسطورية ، ترفض القول بأن عالمنا يمكن تغييره لصالح الإنسان الكادح ، كذلك الفلسفة « المثالية الذاتية » تسخر من الناس الكادحين ، الطامعين إلى تحطيم بؤسهم الاجتماعى والقومى ، فهى ترى أن ليس لهذا البؤس من وجود حقيقى ، إنما الحقيقى هو « الأنا » أو الذات (ص ١٣٨ .

فن أين جاء بهذه الأحكام ، مع أن قوام « المثالية » ، موضوعية وذاتية ، هو الإيثار ونكران الذات ؟ .

إن المثالية تقوم - فى أساسها - على الارتباط بالخالق الذى (ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ، وأن (المال مال الله) ، ولا مبرر لأن نخل على المحتاجين بمال الله الذى آتانا ، ومن الواجب أن يكون فى هذا المال (حق معلوم ، للسائل والمحروم) دون من أو أذى ، فلا قيمة لصلاة (من يراءون ويمنعون الماعون) إن الذى (يدع

اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) إنما يكذب بالدين ، لأن الصدقات فريضة من الله (للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله ، وابن السبيل) .

تشريع كامل ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (تنزيل من الرحمن الرحيم) ، وليس تشريع الانتقام لشعب يعيش في (الحيثو)^(١) يتعزى بدعوى أنه شعب الله المختار ، وأن الله ما خلق غيره من الشعوب إلا لخدمته ، كما خلق الحيوانات ، ومن هنا كثر عدوانه ، وكثر الاعتداء عليه ، فكان التلذذ بدعوى الاضطهاد ، وليس تشريع الانتقام لأخ قتله القيصر^(٢) ، والحكم بالإعدام يلاحقه ، أو لوجود طويل بالمتى ، محروماً من الأهل والوطن . .

ليس تشريع الحالات المرضية الطارئة ، إنما هو تشريع الرحمة والعدل ، بل الرحمة قبل العدل .

تشريع (عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) .

تشريع (الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) . .

تشريع الثواب والعقاب ، (كل نفس بما كسبت رهينة . . وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) .

تشريع (الكلمة الطيبة صدقة) ، (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) ، (ادفع بالتي هي أحسن) ، « ادفع السيئة بالحسنة تَمْحُهَا ، وخالف الناس بخلقِ حسن » .

(١) إشارة إلى أن الماركسية مكر يهودي .

(٢) إشارة إلى لينين

ليس تشريع أفران وسرايب الإعدام ، ومن ليس معنا فهو علينا ، وإعما هو تشريع « من قال لا إله فقد عصم مني دمه وماله » ، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . (وتحبهم فيها سلام) (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم) . تشريع (من عفا وأصلح فأجره على الله) .

تشريع شعاره (بسم الله الرحمن الرحيم) ، السلام عليكم ورحمة الله ، ومجتمعه قائم على التعاون والتضامن والتحاب ، فلا محاصمة ، ولا مدايرة ، ولا وشاية ، ولا غيبة ، ولا غيبة ، ولا أجهزة سرية ، ولا وسائل تصنت ، ولا أخذ بالثبته ولا غسيل مخ ، لأنه (الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) ، (كالنيران المرصوص يشد بعضه بعضاً) ينصرُ بعضه بعضاً ، القوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له ، والحاكم مُطاع ما أطاع الله ورسوله ، فإذا انحرف فلا طاعة له ، وعلى المجتمع تقويمه .

هو تشريع الفطرة والطهارة والقوة ، « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » . (قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

فن أين (السلبية والخنوع والتبرير الاستعبادي والحنمية الطبيعية الميكانيكية) ؟ ص ١٥٤ .

الآن هناك إيماننا بلإله خالق (يملك السموات والأرض أن تزولا) ، تكون الجبرية الغيبية الغائبة ، و (ليس هناك تطوّر) ، لأن (هناك إرغاماً مبدئياً على أن يسير كل شيء ضمن مسار محددة طبائعه وآفاته) ؟ ص ١٥٣ / ١٥٤ .

وهل ينكر عاقل أن الكون يسير وفق قوانين إلهية ، لا تخضع للمصادفة ، ولا تنتج عن (حتمية طبيعية ميكانيكية) ، دون تدبر (وكل في فلك يسبحون) ،

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار) ، (والقمر قدرناه منازل) (والشمس تجري لمستقر لها) ؟

هل ساءل الدكتور نفسه عن نفسه ، غرائزها ومواهبها وملكانها ؟ هل حدثت نفسه عن السر من وراء اختلاف المواهب والأشكال عند الإخوة ، واختلاف الألوان والعطور عند الأزهار ، واختلاف الطعوم والقيم الغذائية عند الثمار في مزرعة واحدة ؟ .

هل (الحتمية الطبيعية الميكانيكية) تفرق بين الطاووس والغراب ؟ بين شجرة الليمون وشجرة البرتقال ؟ بين الضفدع والسرطان ؟ بين الحرياء والثعبان ؟ بين الأبله والحكيم ؟ .

إن الدكتور يقول : (فما لاشك فيه أن هناك ضرورة ميكانيكية تسود العالم الطبيعي) ص ١٥٥ . فن أين كان الاختلاف مع وحدة البيئة ووحدة المؤثرات ؟ ويقول : (فالحدوث الاجتماعي ، كالثورة مثلا ، يتم بالطبع حينما تتوفر شروط موضوعية معينة اقتصادية واجتماعية وتكنيكية بيد أن هذا غير كاف ، ذلك لأن الثورة بالأصل من صنع الناس الاجتماعيين ونتيجة لفعاليتهم) ص ١٥٥ .

وهذا كلام جيد حسب الظاهر ، أو حسب النظرة العامة ، لأن الثورة بعواملها الاقتصادية والاجتماعية والتكنيكية - قد يصيبها الإحباط والإحاطة بالثائرين ، لمجرد خلل أصاب ساعة قائد الثورة ، فاضطرب التوقيت ، لمجرد انقطاع الحرارة عن جهاز التليفون ، لمجرد إصابة القائد بالإسهال ، لتزوة لعبت برأس أحد الرجال فخان الأمانة ، إلى ما لا يحصى من هذه الأحداث الصغيرة غير المتوقعة . . وعند ذلك يصح الثوار مجموعة من المجرمين ، تعلق لهم المشانق وينكل بذويهم وأهلهم ، بدل أن ترفرف لهم الأعلام وتدق الطبول ، وتقام التماثيل ،

والدكتور يعترف بأن (في المجتمعات ، ماقبل الاشتراكية ، يتم التطور الاجتماعي في الخط العام بالرغم من الناس الموجودين فيها) . لكنه يعلن ذلك بأنه

(لم يكن لها أن تنتج نظرية علمية ثورية خاصة بها ، قادرة على اكتشاف القوانين الأساسية لحركة التطور الاجتماعى والطبيعى) ص ١٥٦ . مع أن النظرية الماركسية كانت وليدة مجتمع رأسمالى ، وكان الظن أن نجد طريقها إلى التطبيق بين عمال المصانع الألمانية أو البريطانية فإذا بها تنمو فى الأرض الروسية ، على غير ما كان يتوقع صاحب النظرية ، بمعنى أن النظرية سبقت التطبيق ، وأن المجتمع قد لا ينتج نظرية تطوره ، لأن هناك عوامل لا تكون فى الحسبان تنشأ كما تنشأ الريح ، وتحرك كما تحرك السحب ، وتسقط الأمطار حيث لا يشهى الزارعون .

إن الفكر الاشتراكى ليس وليد مجتمع اشتراكى ، وإنما هو وليد مجتمع طبقى ، لأنه ثمرة الإحساس بالاضطهاد ، وهذا الإحساس ينشأ فردياً ، ثم يتحول إلى شعور جماعى .

وقد ينشأ فكر مضاد للاشتراكى ، نتيجة قسوة وتجبر التسلطين ، كما يحدث الآن فى بولندا وفى الصين وفى الاتحاد السوفيتى ، وكما حدث فى المجر وتشيكوسلوفاكيا ، ثم وأدته دبابات الجيش الأحمر .

(وفى المجتمع الاشتراكى نفسه تتحول تلك النظرية العلمية إلى اللولب الفكرى الكبير المحرك والمنظم للحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والأخلاقية والجمالية) ، ص ١٥٧ . وكذلك الشأن مع أى نظرية اقتصادية تأخذ طريقها إلى التنفيذ ، مع اختلاف فى الدرجة طبعاً ، لكن شتان بين نظرية مقصورة على نشاط إنسانى محدود ، ودين عام شامل لكل ألوان النشاط الإنسانى ، روحياً ومادياً .

ولهذا كان من العبث أن نقول : (إن الجبرية الغيبية - الدين فى رأيه - تودى بشكل رئيسى إلى سلخ الإنسان عن الواقع العيالى الشخصى ، المتسم بالبؤس والاغتراب وشده إلى ما وراء الواقع) ص ١٥٨ ، مع أن نصوص التشريع الإسلامى ، قرآناً وسنة ، وفيما جاء عن الصحابة والتابعين والمجتهدين من العلماء - تدعو إلى العمل وتحث عليه ، وتنظمه مزارعة ومتاجرة ومضاربة ومؤاجرة ،

وتصنيعاً وتطبيقاً وتعليماً ، إلى آخر ألوان النشاط الإنساني ، حتى يتسنى الرخاء الذى يحقق التمتع بالطيبات من الرزق . . . ولقد اقتضت حكمة السماء أن يكون الرسل والأنبياء من الفقراء ، ليكون إحساسهم بقسوة الحرمان حرباً على الفقر وانتصاراً للفقراء . . . وهل كانت الزكاة من أركان الدين الخمس إلا لمحاربة الفقر؟ وهل كان الصوم من أركان الدين الخمس إلا لمحاربة الفقر؟ وفيما كان حرب المرتدين ، وقول أبي بكر : (والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) ؟ أليس هو الزكاة التى تنفق على المحتاجين ؟ وما الهدف من قول عمر ، فى عام التضامن : (لو امتد بى الأجل ، لأخذت من فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء) ؟ ولماذا قال الإمام على : (لو تمثل لى الفقر رجلاً لقتلته) ؟ وإلآم يدعو أبوذر الغفارى بقوله : (عجيب لمن لا يجد القوت فى بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه) ؟

أهذا هو (الانسلاخ عن الواقع الإنسانى العياني الشخصى) ؟

أنطلق سهامنا عن يمين وشمال ، ليقال : إنا ثوريون ؟

كيف ندين الطبقة البورجوازية الجديدة لأنها (بحاجة إلى إخضاع الطبيعة والمجتمع لحاجاتها ومطامعها الشاملة وهى تحاول تطويع العلم والفكر الفلسفى المادى لمصالحها الحيوية) ، ص ١٥٩ أليس هذا من مفاخر الثورية التقدمية ، ومن دعاويها ؟

وكيف نزعِم إمكانية الصراع الطبقي فى العالم العربى (لو أن التبن الاستعمارى الرأسمالى الأوربى مدَّ كُلاباته ، بالتعاون مع الإقطاع الداخلى ، للإحاطة بالبورجوازية الوليدة التعسبة ، ولتفريقها من آفاقها التقدمية الممكنة) ص ١٠٩ ، مع أن الوجود الاستعمارى كان من أهم عوامل الثورة فى مصر والعراق والجزائر ، وهى ثورات نادى بالاشتراكية ، وسعت إلى تحقيقها ؟

ثم إن ما يفضله الدب الاستعمارى الاشتراكى فى دول أفريقيا وآسيا وأمريكا

اللاتينية ، وفي أوروبا الشرقية أيضًا ، لا يكاد يختلف في نتائجه عن جرائم التنين .
ألم يصل إلى سمع الدين باعوا أنفسهم للشيطان ما يجرى في أفغانستان وجنوب
البحر وأثيوبيا وكمبوديا وبولاندا ؟

أليس من الهوان أن نغضى في مفاضلة بين الدب والتنين ، وبلاذا سلعة
يتعاورها هذا مرة وذلك أخرى، ونجد من يصفق لهذا أولئك ، ضالين مضللين
بشعارات مزيفة ، وحقوقنا ضائعة ، وإنسانيتنا مهددة ، ولنا بقادرين على أن
نكون للعالم أولالدين ، لأننا نفرق بينهما أويفرق الاستعماريون بينهما ، لينفذو
بسمومهم ، من خلال القروح والبثور التي تصيب أرواحنا وعقولنا وأجسامنا ؟
كيف يقع في وهم عاقل أن (مسألة تجاوز التخلف الشامل في هذا الوطن لم يعد
طرحها ممكنًا في إطار الثورة البورجوازية الصناعية) ، لأن (الأيديولوجية
الاشتراكية العلمية الورثة الشرعية لكل الجوانب الإيجابية التقدمية) ؟ ص ١٦٠ /
٩٦١ .

لماذا لا يقارن السيد الدكتور بين ما صار إليه حال كل من ألمانيا الاتحادية وألمانيا
الديمقراطية ، وهما شعب واحد ، خرج من الحرب منهزما الاقتصاد ، محرب
البلاد ، ممزق الوطن والمواطنين ، فإذا القسم الذي ينجو من محالب الدب يعجل
بالبناء ، ويتنافس من الحقوق به الهزيمة في كل ميادين الإنتاج ، في حين ظل القسم
الآخر يرسف في قيود المنوعات والمحرمات ، يتطلع أبنائه العساء إلى يوم
الخلاص ؟

لقد عشت أربعة أعوام في عدن ، التي كانت من عوامل الازدهار التجارى بين
آسيا وأفريقيا ، إبان الحكم الاستعماري الإنجليزي ، وكان أبناء اليمن الجنوبي
يضررون في كل الأرض ، ابتغاء الرزق فيثرون ، ويعودون إلى بلادهم ينون
ويعمرون .

فماذا حدث في ظل الاستعمار الروسى ؟

كان أول ما فعله الروس - كما حدث في مصر - أن استولوا على الذهب في محال بيعه ، ونقلوه إلى بلادهم ، مما أدى إلى إصدار قانون عدم بيع الذهب لغير أبناء اليمن ، ولكن (بعد خراب مالطة) !
توقفت الميناء ، أو كاد ، وأصبحت مئات المحال التجارية مغلقة ، وانتقلت التوكيلات التجارية إلى مواطن أخرى .

خليج عدن المشهور بثرواته السمكية أصبح مقصوراً على الأسطول الروسي والأسطول الياباني ، مقابل بعض الملبات وأجهزة التكيف وعربات رجال الحزب .

الإنتاج الزراعي الذي كان يملأ الأسواق حتى الليل ، لم يعد يكفي طواير الواقفين على أبواب أسواق الحكومة ، ومن لا يحصل على حاجته قبل العاشرة صباحاً فعليه أن يحلم بالعد . . ولا يرجع السبب إلى ازدياد عدد السكان ، لأن الحقيقة المرة تؤكد أن أكثر من نصف الشعب اليمني في الجنوب قد هاجر ، قبل أن يُحكم الحزب الشيوعي قبضته ، وما زال تهريب المهاجرين من عوامل إثراء سكان الحدود .

كان في عدن وحدها - إبان الحكم الإنجليزي - أكثر من عشر صحف ، فلم يعد بها إلا صحيفة أكتوبر اليومية ، وصحيفة الثورة الأسبوعية ، وتكاد الصحيفتان الهزيلتان تقتصران على بيانات الحزب .

أقيم في اليمن الجنوبي مصنع للنسيج ، وآخر لتعليب الطماطم ، وثالث لتعليب الأسماك ، ورابع للدخان والكبريت ، والمصانع الثلاثة الأولى تنعى من بناها ، بسبب ما تحققه من خسائر ، والمصنع الوحيد الذي يحقق ربحاً هو مصنع الدخان ، لأن أكثر من يعيش على أرض الجنوب اليمني ، من رجال ونساء وصبية يشربون الدخان والبيرة ويمضغون القات ولا يكاد الرجل يعود على بيته بأكثر من ربع دخله ، والباقي ينفق على مجالس القات ، التي حددت لها الدولة أيام الجمع

والإجازات ، واليوم السابق على الجمع والإجازات ، فازدادت شراهة الناس إلى هذا الوفاء الذى يقتل النفوس ويستهلك الأموال . .
يُشرف الروس على الجيش البمنى ، وسيطرون على جزيرة سوقطرة، بحيث لا يدخلها بمنى إلا بتصريح خاص ، ويشرف الألمان الشرقيون على أجهزة الأمن الداخلى ، والصينيون والكوريون والكويتيون يتسللون إلى الأجهزة الأخرى .
نسبة تعليم البنات فى الجامعة إلى البنين تصل إلى ثمانين فى المائة ، لأن الشبان يجندون بعد (الثانوية) ، فينقطع ما بينهم وبين التعليم ، أو يهربون خارج الحدود ، وينقطع ما بينهم وبين الوطن . . وفى الغد القريب تصبح أجهزة الدولة فى أيدي النساء (! !)

هذه صورة مصغرة عن البلد الاشتراكى الذى تسير عجلة الحياة فيه بمنح الكويت والإمارات العربية وليبيا ، وللأسف ، أكثر من نصف هذه المنح يمتصده خبراء الروس والألمان الشرقيين .

فانظر إلى أى مدى صارت عروس الموائى تمدّ يدها إلى (الرأسمالية) العربية ، لتتفق على عشاقها (الوارثين الشرعيين لكل الجوانب الإيجابية التقدمية) ! !
وإذا كان المثل العربى يقول : رمتى بدائها وانسلت ، فإن هذا الوفاء الشيوعى لا يسهل أن يغادر ضحاياه ، وإن أرمت وبلت .

ومع هذا يذكر الدكتور (أن التقدم العاصف فى المجتمعات الرأسمالية الاستعمارية هو بالأصل تقدم فى الجانب « التكنولوجى » ، وفى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، أما الجانب الاجتماعى « الإنسانى » ، والعلوم الإنسانية ، فيعانى من أزمة عميقة شاملة ، لا يمكن الخروج منها ضمن الحالة الراهنة فى تلك البلدان ، وذلك لعاملين :

١ - التطور العلمى والتكنولوجى قد قدم إمكانيات تتيح للسلطة الاستعمارية

القومية مواجهة المواقف « غير المتوقعة » ، التى تقود إليها جماهير الكادحين بكثير أو قليل من النجاح .

٢ - التعقيد الكبير الذى دخل الحياة العامة ، وجعل من الصعوبة بمكان الكشف عن المسئول « المباشر » عن مجموع ما يحدث فى العالم الرأسمالى الاستعمارى (ص ١٦٣ .

فهل يرى (الدكتور) أن (التقدم التكنولوجى العاصف) واكب فى البلدان الاشتراكية (تقدمًا إنسانيًا) ، وكل يوم تطالعنا الأنباء بمآسى (المشقيين) فى الاتحاد السوفيتى ، وضحايا الثورة الثقافية المأوية ، وضحايا الثورة على الثورة ، للقضاء على أنصار (عصابة الأربعة) فى الصين ؟ لقد شرد السوفيت أكثر من ثلاثة ملايين أفغانستاني ، وضحوا بنصف الشعب فى اليمن الجنوبي ، وثلث الشعب فى إثيوبيا ، وذهب الملايين ضحية الطغيان الأحمر فى كمبوديا وفيتنام ولاوس وتيلاند والصومال وأرتريا وأنجولا ، ناهيك عما أصاب الشعوب الإسلامية التى ابتلعها روسيا ، وما أصاب غير الشيوعيين فى المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، فأنى حدث هذا التقدم الإنسانى ياترى ؟

وكما يحدث أن (البغى) تفتن فى اتهام الأخريات ، وتتلذذ باختلاق القصص والأراجيف ، وتجد فى ترويج دعاويها واقتراءاتها ، كذلك يفعل أصحاب الكلمة (الحمراء) مع أن الحق بين ، والباطل بين ، وليس ثمة اشتباه .

فهو يرى ، أو يردد ، (أن قضية الثورة مسألة معلقة وغير واردة فى المجتمع الرأسمالى الاستعمارى المتقدم تكنولوجياً علمياً . والإشكالية البدائية تتأق من كون الطبقة الرأسمالية ترى فى انسداد آفاق التطور المستقبلى أمامها هى ، انسداداً لآفاق التطور أمام الإنسانية جمعاء . . . فهى تقاتل الجميع ، لكى يسقطوا وتبقى هى وحدها) ص ١٦٦ / ١٦٧ وكأن الاشتراكية الدولية لا تفعل هذا ! ! .

وهو يرى ، أويردد (أن أليركامو وجان بول سارتر أصبحا من آباء الثقافة
المكافحة من أجل « الحرية » ولكن عبر « القرف » والتقرز » و « التمزق » . . لقد
أصبحت الحرية تكن في التأكيد على « عدم جدوى » ، وبالتالي في تقبل « الموت »
بطوعية ، عن طريق « الانتحار ») ص ١٧٤ وذلك لأن الوجودية نشأت (في
العصر الياثس بعد الحرب العالمية الأولى ، مع كل شعور عدم الضمان الذي استبد
آن ذاك بالإنسان ، وهي تعمل بذاتها بوضوح آثار كل هذه الهزات المخيفة) ص
١٧٠ .

فإذا كانت الوجودية ترجع إلى (نتائج التصدع التاريخي الشامل لكل عالمنا
الفكري حتى الآن) ص ١٧٠ . فقد صدقت في التعبير عن المرحلة التي ظهرت فيها ،
وكل مذهب جديد رهن بظروف جديدة ، لا تلبث أن تتغير ، ولذلك أكد
سارتر (أن كل ما كتبه سابقاً ما هو إلا « بناية كسبية » لا تشكل بالنسبة إليه المجد
الحقيقي ، وما هي بالتالي إلا جنون أو بؤس فكري) ص ١٧٥ .
ومع هذا ، فالوجودية لا تخرج عن كونها فكراً تأملياً مأساوياً ، أو قصيدة رثاء
لهذا العالم الممتحن ، ولا مجال لمقارنتها بالفكر الاشتراكي الذي يضع حلولاً
لمشكلات اقتصادية في الدرجة الأولى .

وهو ينكر على جارودي (أن يقول بأن مجتمعا طبقياً ، أى غير متجانس
اجتماعياً ، يستطيع أن يتبنى التعدد الفلسفي) ، مع أن كاتبنا يقول (بوجود تعدد
فلسفي في إطار منظمة سياسة ثورية ، تمثل الطبقة الاجتماعية الأكثر تقدماً في
التاريخ وهي الطبقة العاملة) ص ١٩٧ ، وذلك لأنه وأمثاله لا يؤمنون بالتعايش
السلمي مع المذاهب أو المنظمات الأخرى ، لأنهم حريصون على أن يكونوا هم
أصحاب البوق الواحد والحزب الواحد ، وليس وراءهم إلا الطوفان . .

وهو يرى أن (الممارسة السياسية الثورية المعبأة بالفكر الماركسي الثوري هي
الجديرة بنزع البرقع الخادع عن وجه هذا الطرح الجارودي المجهين) ص ٢٠ مع أن

هذا (الجارودى) كان أحد أعمدة الحزب الشيوعى الفرنسى^(١) ، لكنه يأخذ بالتسامح الليبرالى الذى (يعمل جاهداً على رد الفلسفة الماركسية إلى واحد من التيارات العديدة فى العالم الاستعمارى) ص ١٩٨ ، ومن ثم يمكن التقارب أو التعاضد ، وهذا نوع من (التحريفية) البغيضة لدى (النصين) أتباع لينين . وهو ينكر على ماركوز القول بأن (التقدم العلمى التقنى فى المجتمع الرأسمالى . . . يرفع ويثرى الإنتاج بشكل ضخم ، بحيث يخلق رفاهاً اجتماعياً اقتصادياً عاماً بين الجماهير ، وبحيث يؤدي هذا الرفاه إلى شل الروح الثورية المقاومة لدى أولئك الجماهير) ، لأن (ذلك الرفاه العام ليس عاماً فعلاً ، بل نسبياً إلى حد كبير ، فالملايين الأربعة من العاطلين عن العمل فى الولايات المتحدة الأمريكية وعملية التسميمات العالمية ، منذ سنوات ، فى برلين الغربية وألمانيا الغربية لا يدعان مجالاً للشك فى أن رفاهاً عاماً هو واقع نسي جداً فى المجتمع الرأسمالى الحديث . . إن الكادح الذى كان دخله السنوى يتراوح مثلاً فى حدود الـ ٣٠٠٠ ليرة ، نراه - إذا بقى محتفظاً بمكان عمله - يحصل حالياً على ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ ليرة سنوياً ، لكن الدخل السنوى للرأسمالى ، رب عمله ، أخذ بالمقابل يرتفع بشكل أسطورى) ص ٢٠٦ / ٢٠٨ .

وهذا مأخذ لا شك فيه لكنه مائل ، بصورة أو بأخرى ، فى توزيع الدخل بين الكادحين والقياديين فى المجتمع الاشتراكى ، وكلا المجتمعين يمحى بالجرمة ، غدرًا وخداعًا وقتلاً وتنكيلًا وحرمانًا من الأمان النفسى ، وهو القيمة الكبرى التى تنشدها الإنسانية فى أى مجتمع ، وعلى أى مستوى .

وهو يأخذ على المجتمع الرأسمالى أن السائدين فيه (اجتماعياً واقتصادياً وأيدولوجياً - كانوا يحاولون دائماً جعل أيدولوجيتهم الأيدولوجية الوحيدة فى

(١) أسلم الفيلسوف روجيه جارودى ، ويرجى بإسلامه خير كثير .

بمجتمعهم ، وإثارة وتغذية اليقين بأنها أيديولوجية الإنسان عمومًا في كل زمن وبقعة ، هنا بالضبط يتبين زيف أيديولوجيتهم (ص ٢١٥ ، مع أن المجتمع الرأسمالي يقوم على تعدد الأحزاب ، ويعترف بحكومة الظل للحزب المعارض ، ويسمح بتشكيل حزب شيوعي ، له صحفه وممثلوه في المؤسسات الديمقراطية المختلفة ، على حين يقوم المجتمع الاشتراكي على الحزب الواحد وكل شيء لهذا الحزب الواحد (الطبقة الوحيدة التي تستطيع ترسيخ سيطرتها مكان طبقة أخرى سائدة من خلال عملية واعية مخططة) ص ٢٢١ .

• • •

ويعضى السيد الدكتور في إعادة تشكيل هذه الدعاوى من خلال قراءاته المتنوعة ، مركزًا على الجانب السياسي مما يخرج على نطاق الخط الذي رسمناه لهذا التناول عن (التراث) .